

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الثانية
قِصَصُ السَّيِّرةِ

وَفَاةُ النَّبِيِّ

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وما محمدٌ إلا رَسولٌ قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ،
أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ
يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ ﴾ .

(قرآن کریم)

عاد رسولُ الله ﷺ إلى المدينة ، وفي ذاتِ ليلة ،
 قامَ في جوفِ الليل ، ونادى مَولاه (خادِمَه) أبا
 مُؤيَّهَة ، وقال له :

- أسرِجْ لِي دَابَّتِي .

فقامَ أبو مُؤيَّهَة يُعِدُّ له بَغْلَتَه ، ثمَّ رَكِبَها رسولُ
 الله ، وقال :

- يا أبا مُؤيَّهَة ، إِنِّي قد أُمِرْتُ أن أَسْتَغْفِرَ لأهلِ
 هذا البَقِيع ، فانْطَلِقْ معي .

وسارَ الرَّسولُ إلى البَقِيع ، وهو مكانُ مقابرِ
 المُسلمين في المدينة ، وسارَ أبو مُؤيَّهَة خَلْفَ بَغْلَتِه ،
 حتَّى إذا بَلَغا البَقِيع ، نَزَلَ رسولُ الله ﷺ عن بَغْلَتِه ،
 فَاسْرَعَ أبو مُؤيَّهَة إليها وأَمْسَكها ، والتفتَ رسولُ
 الله ﷺ إلى القُبُور ، وقال :

- السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ ، لِيَهْنَكُمْ (أَيْ هَنِيئًا لَكُمْ) مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ ، مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ .
أَقْبَلْتُ الْفِتْنُ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يَتَّبِعُ آخِرُهَا أَوَّلُهَا ،
الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأُولَى .

والتفت رسولُ الله إلى مولاه وقال :

- يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ
الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ، ثُمَّ الْجَنَّةُ ، فَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ
وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّةِ .

فقال له مولاه :

- يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَخُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا
وَالْخُلْدِ فِيهَا ، ثُمَّ الْجَنَّةَ .

فقال له رسولُ الله ﷺ :

- لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي
وَالْجَنَّةَ .

ووقفَ رسولُ الله ﷺ لِأَمْوَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ
انصَرَفَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَخَادِمُهُ يَسِيرُ خَلْفَهُ .

عاد رسول الله ﷺ من البقيع إلى الدار ، فوجد زوجته عائشة ، تشكو صداعا ، وتقول :
- وارأساه .

فقال لها :

- بل أنا يا عائشة وارأساه .

وجلس إلى جوارها ، والتفت إليها ، وقال
مُداعبا :

- ما ضرَّك لو مُتَّ قبلي ، فقمْتُ عليكِ وكفَّتُكِ
وصلَّيتُ عليكِ ودَفَّنتُكِ .

قالت له عائشة :

- والله لكأنِّي بك لو فعلتَ ذلك ، لقد رجعت
إلى بيتي ، فأعرست فيه ببعض نسائك .

فتبسَّم رسول الله ، ونام وهو يشكو ألما في
رأسه ، وراح يدور على نسائه ، كان يدخل على

كلّ زوجة ليلة ، وأحسّ اشتداد المرض عليه ، فكان
كلّما دخل على زوجة من أزواجه ، يقول :
- أين أنا غدا ؟

فهمت زوجاته أنه يريد أن يمكث في بيت
عائشة ، لتعتني به في مرضه ، ولما كان في بيت
زوجته ميمونة ثقل عليه المرض ، فسأل أزواجه أن
يمرض في بيت عائشة ، فأذن له ، فأرسل إلى عليّ
بن أبي طالب ، وعمّه العباس ، فلما جاءا خرج
بينهما ، كان يستند عليهما ، وكان عاصباً رأسه ،
وظلّ في سيره ، حتى دخل بيت عائشة ، وبقي به ،
لا يخرج إلا للصلاة .

خَيْمَ اللَّيْلِ ، واجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ لَصَلَاةِ
العِشَاءِ ، وارتفع صوتُ بلالٍ عَذْبًا :

— اللَّهُ أَكْبَرُ ! اللَّهُ أَكْبَرُ ! اللَّهُ أَكْبَرُ !
وَأَتَمَّ بِلَالٌ الْأَذَانَ ، وانتظرَ الناسُ خروجَ النَّبِيِّ ،
ولكنه لم يخرج ؛ أرادَ أن يذهبَ للصَّلَاةِ ، فَأُغْمِيَ
عليه ، ثم أفاق ، فقال :

— أَصَلَّى النَّاسُ ؟

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ :

— لَا . هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ .

فَطَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَاءً لِيَتَوَضَّأَ ، ولكنْه لم
يَقْوِ ، فَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيْهِ ، وَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ :

— أَصَلَّى النَّاسُ ؟

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ :

— لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ .

وأراد أن يتوضَّأ ، فأغْمَى عليه ، والنَّاسُ
مجتمعون ، ولَمَّا أَفَاقَ دخل بلالٌ عليه ، وقال :
- الصَّلَاةُ يا رسولَ الله .

فقال ﷺ :

- لا أستطيعُ الصَّلَاةَ خارجاً ، مُرُّوا أبا بكرٍ
فليُصلِّ بالنَّاسِ .

خافتُ عائشةُ ، لأنها تعلمُ أنَّه لن يقومَ أحدٌ مقامَ
رسولِ الله ﷺ ، إلَّا تشاءمَ النَّاسُ به ، فأرادتُ أن
يختارَ رسولُ الله أحداً غيرَ أبيها ليُصلِّي بالنَّاسِ ،
فقالت :

- إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقٌ ، إذا قامَ مقامك لم يُسمع
النَّاسَ من البكاء .

فقال رسولُ الله ﷺ :

- مُرُّوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالنَّاسِ .

فقالت عائشة :

- إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقٌ .

فقال رسول الله :

— إِنَّكَ صَوَّاحِبُ يَوْسُفَ (أَى إِنَّكَ تُظْهِرُنْ غَيْرَ
مَا تُخْفِينَ ، كَمَا فَعَلْتَ زَوْجَةَ الْعَزِيزِ لَمَّا أَظْهَرْتَ
لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي جَمَعْتُهُنَّ ، أَنَّهَا تُرِيدُ إِكْرَامَهُنَّ
بِالضِّيَافَةِ ، وَإِنَّمَا قَصْدُهَا أَنْ يَنْظُرْنَ لِحَسَنِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، فَيَعْذِرْنَهَا فِي حَبِّهِ) ؛ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ
بِالنَّاسِ .

فَخَرَجَ بِلَالٌ إِلَى النَّاسِ يَبْكِي ، فَجَاءَ إِلَيْهِ النَّاسُ
خَائِفِينَ ، وَقَالُوا لَهُ :

— مَا وَرَاءَكَ يَا بِلَالُ ؟

فَقَالَ بِلَالُ :

— إِنْ رَسُولَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ الصَّلَاةَ خَارِجًا .
فَرَّاحَ الْمُسْلِمُونَ يَكُونُ .

أراد الرسول ﷺ أن يخرج إلى الناس ، فقال
لنسائه :

- أفيضوا علىّ (أى صبّوا على) من سبع قرب ،
من سبع آبارٍ شتّى ، حتى أخرج فأعهد إلى الناس .
وصبّوا عليه الماء ، وخرج يستند على رجلٍ من
أهله ، حتى إذا بلغ المنبر ، جلس عليه ، فجاء إليه
الناسُ فرحين بخروجه ، والتفوا حوله ، فقال :

- اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَشُهَدَاءِ أَحَدٍ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَشُهَدَاءِ
أَحَدٍ . يا معشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تزيدون ،
والأنصارُ على هيئتها لا تزيد ، فأكرموا كريمهم ،
وتجاوزوا عن مسيئهم .

أيها الناس ، إنّ عبداً من عبادِ الله ، قد خيّرهُ الله

بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ .
فَهُمْ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ ،
وَأَنَّهُ يَذْكُرُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ سَيَمُوتُ ، فَبَكَى مِنَ الْحُزْنِ ،
عَلَى فِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَمَا فَارَقَهُ أَبَدًا ، قَالَ :

- بَلْ نَحْنُ نَفْدِيكَ بِأَنْفُسِنَا وَأَبْنَائِنَا وَأَمْوَالِنَا .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

- إِنَّ أَمَنَ النَّاسِ عَلَى فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ ،
وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا ، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ
خَلِيلًا .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ :

- يَأْيُهَا النَّاسُ ، مَنْ أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا فليَقُمْ
أَدْعُو اللَّهَ لَهُ .

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ :

- يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي لَمُنَافِقٌ ، وَإِنِّي لَكَذُوبٌ ،

وإني لَشُّوم .

عجبَ الناسُ من ذلك الرجل ، الذى فَضَحَ
نفسه ، وقال عمر :

- ويحك أيها الرجل ، لقد سَتَرَكَ الله لو سَتَرْتَ
على نفسك .

فقال رسولُ الله ﷺ :

- مَهْ يَا بَنَ الْخَطَّابِ ، فَضُوحُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ
فُضُوحِ الْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا وَإِيمَانًا ، وَأَذْهَبْ
عنه الشُّوم .

دخَلَ الرَّسُولُ ﷺ دَارَهُ ، وَبَقِيَ بِهَا يُصَلِّي
 لَا يَقْوَى عَلَى الْخُرُوجِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي
 بِالنَّاسِ ، وَفِي صَبَاحِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ ، سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ
 أَصْوَاتَ النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ ، فَكَشَفَ سِتْرَ الْحُجْرَةِ
 وَنَظَرَ ، فَرَأَى الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ
 يُصَلُّونَ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ ، فَتَبَسَّمَ ، فَفَرَحَ النَّاسُ لَمَّا
 رَأَوْهُ ، وَفَسَحُوا لَهُ ؛ حَسِبُوا أَنَّهُ خَارِجٌ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ ،
 وَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ ، لِيَتْرَكَ لَهُ مَكَانَ الْإِمَامَةِ ، وَلَكِنَّ
 الرَّسُولَ ﷺ أَشَارَ لَهُمْ أَنْ اسْتَمِرُّوا فِي صَلَاتِكُمْ ،
 وَأَرْخَى السِّتَارَ .

وَاشْتَدَّ الْوَجَعُ عَلَى النَّبِيِّ ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِ
 عَائِشَةَ ، وَكَانَ عِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ ، فَكَانَ يُدْخِلُ يَدَهُ
 فِي الْقَدَحِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالماءِ ، وَيَقُولُ :

- اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ .
وَتَقُلْ رَأْسُهُ ﷺ فِي حِجْرِهَا ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ غُشِيَ
عَلَيْهِ ، فَغَطَّتْهُ بِثَوْبٍ ، فَجَاءَ عُمَرُ وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ،
فَاسْتَأْذَنَا ، فَأَذِنَتْ عَائِشَةُ لهُمَا ، فَنَظَرَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ
عمر :

- وَاغْشِيَاهُ ، مَا أَشَدَّ غُشِيَ رَسُولِ اللَّهِ !
وَقَالَ الْمَغِيرَةُ :

- يَا عُمَرُ ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ .
فَقَالَ لَهُ عُمَرُ فِي شِدَّةٍ :

- كَذِبْتَ ! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَمُوتُ ، حَتَّى
يُفْنِيَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ .

وَخَرَجَ عُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ ، وَيُوْعِدُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ مَاتَ . وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ ، وَدَخَلَ
عَلَى الرَّسُولِ ، وَرَفَعَ عَنْهُ الْغِطَاءَ ، وَقَالَ :

- إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ... مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ .
وَقَبَّلَ رَأْسَهُ .

ثم قال في حُزن :

- وانبياءه .. واصفياه .. واخليلاه !

وخرج أبو بكر إلى الناس ، وعمرُ يخطُبُ الناس
ويقولُ إنَّ رسولَ الله لا يموتُ حتى يُفنى الله
المنافقين ، فقال له أبو بكر :

- اجلس يا عمر ، اجلس يا عمر !

ثم قال أبو بكر :

- أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله ، وأشهدُ أنَّ محمدًا
رسولُ الله . أمَّا بعد ، فمن كان منكم يعبدُ محمدًا
فإنَّ محمدًا قد مات ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ
لا يموت .

وصمتَ قليلًا ، ثم قرأ من القرآن :

« وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسل ،
أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلبْ
على عَقْبِهِ فلن يضرَّ الله شيئًا ، وسيجزي الله
الشَّاكرين » .

وَتَيَقِّنَ النَّاسُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ ،
فَأَجْهَشُوا بِالْبُكَاءِ ، وَارْتَفَعَ صَوْتُ فَاطِمَةَ تَذْكَرُ
مَحَاسِنَ أَبِيهَا ، فَزَادَ ذَلِكَ فِي حُزْنِ النَّاسِ .

أبتاه يا أبتاه ! .. أبتاه .

أجابَ رَبَّاهُ دَعَاهُ .. يا أبتاه .

إِلَى جَبْرِيلَ نَنَعَاهُ .. يا أبتاه .

مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ .. يا أبتاه .

وَجَاءَ أَوَانُ الصَّلَاةِ ، فَقَامَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ :

اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ! اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ !

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ..

وَتَذَكَرَ بِلَالٌ رَسُولَ اللَّهِ الْمَيِّتَ فِي دَارِهِ ، فَخَنَقَتْهُ

دُمُوعُهُ ، وَبَكَى الْمُسْلِمُونَ حَتَّى ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ

بِالْبُكَاءِ ، وَلَفَّهَا حُزْنٌ عَمِيقٌ .